أخي فريد كالأولياء الصالحين

وكان نشاطه ملحوظًا وهو يعمل على ضفاف المؤتمر القومى الموسع ، فقدم أشياء كثيرة وفهم أشياء أكثر.. ورأى من يقدم الفكر السليم: كيف تكون منزلته عند الناس، وكيف يكون حجمه عند النظام.. رأى المفكر المستنير خالد محمد خالد يحاور جمال عبد الناصر بقوة وثقة على الهواء ويعرف ـ كل من كانوا لا يعرفون ـ أن هذا المفكر له كتاب مهم اسمه «من هنا نبدأ» قرأه جمال عبد الناصر، وراح يتحدث الزعيم عنه باهتمام واعتدال أمام الناس.

ثم رأى بعد ذلك من حفظ الميثاق عن ظهر القلب وراح يتلوه أمام جمال عبد الناصر فأثار انتباهه، ثم سجل لنفسه مكانًا بهذا الحفظ لينال بعد ذلك مكانته كواحد من أوفياء النظام حتى أنه صار وزيرًا.. حيث لم يكن فى ظن المحامى المغمور حافظ بدوى أن يشب إلى هذا المقعد العالى.

واكتشف أنه قد يختلف أمر الصعود عند مفكر رصين يقود.. وعند قرد ذكى يقاد.. ثم اكتشف أن هناك منطقة وسطًا بين العقل الرزين العاقل والقرد اللذيذ الشاطر.. وهى منطقة التماثيل، ووجد أنه بقدر ما هنالك تماثيل حجرية خرساء، فهناك تماثيل بشرية صنعتها الكلام..

وقدر له أن يلتقى أحد هذه التماثيل ووجده محاطًا بهالة من الاهتمام وهو يلبس الجلباب البلدى وله كرش بارز، وقيل له إنه أمين الفلاحين.. فتساءل:

ما معنى أن يكون للفلاحين أمين يجوب العاصمة بين الكاميرات والمتنديات؟.. ما دوره؟.. أو ما مهمته؟.. ثم جَرُأ على نطق السؤال الأجدر: ما أهميته؟ فقيل له إنه يمثل الفلاحين..

ـ «يمثل الفلاحين؟..»

هكذا تساءل أمام مختار عبد العليم، وواصل تساؤله:

ـ «بأمارة إيه؟.. الفلاحون فى بلدنا ليس لهم كروش ولا يرتدون هذه الملابس الحريرية الفخيمة.. فلاحو بلدنا يا مختار يسرقون القمح من غيط الحكومة الذى يطلقون عليه غيط المصلحة.. فلاحو بلدنا يأخذون من واحد اسمه فتيان ثمن شيكارة الكيماوى بالآجل، ويدفعون له ثمنها مضاعفًا عند جنى المحصول..»

وهنا أتى له مختار عبد العليم بوصف جديد اهتدى إليه من حالة أمين الفلاحين الذى لا علاقة له شكلًا أو موضوعًا بالفلاحين، فقال له:

ـ «إذا كان رجالنا واضعى المحامى هذا فى خانة القرود، فإننى أضع أمين الفلاحين فى خانة التماثيل..»

ووثق أمير فى هذا الكلام عندما أضاف مختار إليه كلامًا جديدًا قائلًا:

ـ «والدليل على ذلك أن أمين الفلاحين هذا رتبوا له زيارة إلى روسيا فرأى سيادته أنه من اللائق أن يرتدى بدلة، فأبلغوا جمال عبد الناصر بما يتجه إليه ممثل الفلاحين من رؤية وكان رأى الزعيم مضحكًا»:

ـ «نحن ما أخذناه إلا من أجل جلبابه.. فليرسل الجلباب ويبقى هو.. قولوا له ذلك على لسانى»

وعرف أمير معانى كثيرة حول أدوار القرود وأدوار التماثيل.. وتأكد أن القرد إذا عمل فهو يلهو، وإذا لهى فإنه يرقب العصا بيد القرداتى، ولا ينسى الحبل الذى فى رقبته، كما تأكد أن التماثيل لا يمكنها أن تحتج إذا أوقفوها على قواعد لا تناسبها.. ولا يمكن أن تشعر بالفخر إذا نصبوها على قواعد شائقة..

ثم انتهى إلى قناعة مثبتة وهو أنك لكى تنجح فى عالم السياسة فأنت مطالب أن تكون أحد شيئين هما أن تصبح قردًا أو تتحول إلى تمثال.. أما العقل الرصين الذى ما زال فى وجدان خالد محمد خالد فهيهات أن يلتفت إليه أحد.. أى أحد.

* * *

وانتهى العام الدراسى كما أسر أمير لنفسه: «على خير»

والخير هنا هو أنه لم تدفعه الحاجة إلى الامتثال أمام السيد ليعطيه مما أعطاه الله،

والامتثال هنا هو خضوع الآخذ للمانح.. فماذا لو كان هذا المانح يمثل له قنبلة موقوتة من الممكن أن تنفجر فيه فى أى لحظة..؟ فحراس النظام الذين يعمل عندهم اتهموه عند تجنيده أنه يتستر على أخويه اللذين يتاجران فى الحشيش.. وقد أقسم لهم أنه لا يعرف هذا الأمر.. إذن، فأولى به أن يبتعد عن أخويه حتى لا يناله سوء بسببهما.. أما كيف وصل خبر بدير والسيد إلى هؤلاء الرجال من الساهرين على أمن النظام..؟ فهذا ما أكبرهم فى نظره، وأيقن يقينًا لا شك فيه أنهم فعلًا يحسون «بدبة النملة»!!

ولأنه كان قد نجح فى كسب ثقتهم بأعمال تدخل فى نطاق لغة القرود تارة وهيئة التماثيل تارة أخري، فقد تابع لغته المكتسبة معهم قبل أن ينتهى العام الدراسى، وسجل فى تقريره الأخير بكل وضوح وصراحة رغبته أن يواصل عمله معهم فى الإجازة الصيفية بالاندساس فى معسكرات الطلبة الترفيهية والعلمية لا أن يكتفى بمعسكر واحد طلب منه تنظيمه فى حلوان، وهى كلها معسكرات تثقيف اشتراكى تناثرت مابين الهرم وأبى قير والمكس ومرسى مطروح.. وكانوا أسرع منه فى قبول طلبه ليضمن بذلك إجازة مليئة بالعمل والانتقال ومواصلة كتابة التقارير..

ولأنه نجح فى أن يغذى تقاريره بما يضمن له ولها استمرارية التواصل، ولأنها صارت لها أهمية القبول كما شاهد ذلك فى عينى الرائد وجدى فإنه اكتشف أنه ليس من اللازم فى كل حين أن يحتوى تقريره على بلاغ ضد طالب شيوعى أو إخوانى أو بلاغ ضد أستاذ لا تدور أفكاره فى عجلة النظام.. وتعويضًا عن هذا التقصير الذى من الممكن أن يؤخذ عليه اخترع رصفًا جديدًا راح يعبّد به دروب هذه التقارير، كأن يلقى الضوء على أحوال المجتمع الطلابى ومدى اهتمامات الطلبة: الثقافية والفنية والسياسية، وأن يسجل أحدث النكات الشعبية المتداولة مهما كان بها من جنس بذىء أو إسقاط سياسى..

وفيما بعد، وبعد اندلاع ثورة اليمن وصعود نجم مفجرها عبد الله السلال، لم يتوان أمير النحّال عن تسجيل النكتة التى انتشرت بعد أن أعطى عبد الله السلال لنفسه رتبة المشير، والنكتة تقول إنه أرسل إلى مصر هذه البرقية العاجلة: «رقينا إلى رتبة المشير فابعثوا لنا وردة»

وبراءة النكتة ظاهريًا تفيد بمحتوى ساذج وهو أن يرسلوا له «زهرة».. ولأن النكت لا

تؤلف لهدف ساذج، فقد كان محتوى هـذه النكتة الحقيقى أن يبعثوا له بالمطربة وردة الجزائرية؛ لأنه صار مشيرًا كالمشير عبد الحكيم عامر الذى تقول الشائعات إنه كان على علاقة بها.

وهـكذا اكتسبت تقارير أمير النحال صـفة خاصـة عنـد حـراس النظـام؛ لأنـه يضـع أيديهم على نبض المجتمع الطلابى ويشير إلى اتجاه الريح عندهـم، وعـلى مـن يقـرأ هـذه التقارير أن يكتشف مدى علاقة هـذا الاتجاه باتجاه رياح الشعب..

مرتان قدّم فيهما ضحيتين مستحقتين: أولهما الشاعر صابر منير الذى نفذ له مـن فجـوة صنعها الشاعر بنفسه.. فجوة تقع بين منطقتين يقول فيهما شعره.. فالشـعر الهـادئ الـذى يلقيه من على منصة الندوات الشعرية ليس هـو الشعر الثائر الذى يلقيه وهـو يتمدد عـلى سريره متكئًا فى غرفته بالمدينة الجامعية محاطًا بالأصدقاء الذين حفظـوا نصـوص قصـائده الموجهة إلى جمال عبد الناصر ومنها قصيدة تقول:

ياللى زرعت ميتين فاروق
وطردت م الأوطان فاروق «يقصد الملك فاروق»
هـو أنت فينك م الفاروق «يقصد عمر بن الخطاب»
اللـى مـلا الدنيا عدالة
واللى ملا الإسلام شروق
دانْتا مَلِيت الراس كلام
وزرعت للأجيال خازوق «يقصد روسيا الشيوعية»

وفى مباحث أمن الدولة كان على صابر منير الطالب الفقير ابـن العامـل الأجـير أن يجيـب ـ تحت وقع السياط على سؤال ـ واحـد: **مـا هـو الخـازوق الـذى زرعـه عبـد النـاصر للأجيـال القادمة؟..**

ثم كان على باقى الطلبة أن يتساءلوا: **أين اختفى فجأة زميلهم صابر منير..؟**

ثم كان عليهم أن يتساءلوا مرة أخرى: **كيف وصلت قصيدة الخازوق إلى أمـن الدولـة وقبضوا على صابر منير بسببها؟..**

ثم كان عليه هو نفسه أن يتساءل بعد أن عاد عن سرّ الانكسار الذى اجتاح نفسه وأقلع بسببه عن قول الشعر.. لكنه لم يقلع عن مداومة الصلاة والانزواء والذبول..

أما الدكتور راضى أستاذ مادة إدارة الأعمال وصاحب السيارة الفيات الصغيرة الحمراء الذى عاد إلى تلاميذه بعد فترة انقطاع طويلة فقد اختلف حاله قبل الانقطاع عن حاله الذى كان قبله.. صحيح أن رأيه الخاص فى النظام الاشتراكى لم يقترب بعد من رأى النظام، لكنه لم يعد يحشو به هوامش محاضراته فى خروج على النص خلال هذه المحاضرات كما كان يفعل قبل غيابه المفاجئ الطويل الذى لا يعلم سرّه سوى تلميذه أمير النحّال..

فالاشتراكية ـ كما نقلها أمير على لسان أستاذه ـ نظرية عديمة الجدوى؛ لأنها تحمى النظام ولا تحمى الناس.. فالناس بها سوف تتحول إلى سنون صغيرة وتافهة بل ومتآكلة فى ترس النظرية الذى يدور لصالح النظام.. وأنه لن يحدث أبدًا أن سيعثر الفرد على ملكاته الخاصة ومواهبه وإبداعاته لتحقيق الثراء المشروع لشخصه ومن ثم لأسرته وأخيرًا لدولته فى ظل هذه الاشتراكية..

وفى تقريره حول هذا الموضوع وإكمالًا لتقاريره السابقة كتب أمير النحال لأسياده عن أستاذه بعد خروجه من السجن:

«أنه يحاول أن يكون صمته وتحاشيه الحديث عن فترة اعتقاله شيئًا أبلغ من الكلام.. ويبدو أنه يقاوم ألا يبدو منكسرًا وهو يرسم لنفسه صورة البطل الذى قاوم السلطة بآرائه المعلنة.. وإذا كان من المشكوك فيه أنه ما زال مؤمنًا بكل آرائه السابقة إلا أن المؤكد أنه آثر الآن أن يحتفظ بها لنفسه..»

* * *

ومن الإسكندرية عاد فريد هنيدى ومعه رأفت إبراهيم إلى البلد لقضاء الإجازة الصيفية ولم يجدا بها «أمير» النحال، ثم لم يجدا من يمكنه أن يجيبهما على سؤالهما الفضولى عن سرّ غياب أمير وأين يقيم طالما أن المدينة الجامعية أغلقت أبوابها وعاد كل الطلبة إلى أهليهم.

سارع رأفت إبراهيم إلى الريس عفيفى ليلحقه بعماله الموسميين فى غيط المصلحة استثمارًا لشهور الإجازة وكسبًا لبعض المال، ناهيك عن الخبرة المتاحة لطالب الزراعة..

وكعادته وهو يجلس أمام دكان خميسة شاهد «بدير» النحال يتناول من خميسة لفافة مغلفة بأوراق الصحف ومربوطة بالورق المصمغ والدوبار.. وعرف أنها رسالة من السيد إلى إخوته ووالديه، ثم عرف من بدير أن «أمير» مكلف من إدارة الجامعة بالإشراف على المعسكرات الطلابية وأنه قلما تتاح له فرصة قضاء بعض وقت الإجازة فى البلد..

ولم يمض أكثر من أسبوعين حتى شاهد رأفت رجلًا غريبًا يضع على البنك أمام خميسة لفافة أخرى وهو يبادلها حديثًا وديًّا، وينقل لها تحايا الأستاذ، وعرف رأفت أنها رسالة جديدة لم يمكث فى جلسته طويلًا حتى جاء بدير لاستلامها.

لم يلق رأفت بالًا لهذين الحادثين إلا أنه انتبه لما قاله فريد هنيدى تعليقًا على هذه الرسائل التى أحيط بها علمًا فى ثرثرة عابرة من رأفت. وكان ما قاله فريد هنيدى هو:

ـ **«أغلب الظن أن هذه الرسائل ليست بريئة..»**

وراح يؤكد ظنه الآثم بتحليلات منطقية.. فحامل الرسائل شخص واحد لم يتغير.. وكيف يتفق وصول هذا الرجل الغريب من القاهرة ثم حضور بدير النحال خلفه بعد قليل من الوقت..؟ ثم تساءل فريد:

ـ **«ولماذا دكان خميسة بالذات، أليس من الملائم أن يقوم هذا الرجل بتسليم الرسالة إلى عباس النحال فى داره مباشرة طالما أنها تحتوى على هدايا لأولاده من أخيهم المسافر..؟»**

وفى الجانب الآخر كان بدير النحال قد انتابه القلق من جلسة الأصيل الطويلة التى يقضيها رأفت إبراهيم عند خميسة بحكم عمله مع أبيها والتى أتاحت له أن يشاهد رسائله الخطيرة مرتين متتاليتين فأسرع بمحادثة السيد أن يعدل خططه فى التسليم والاستلام أو يبكر بإرسال عنتر مكاوى عند الضحى، وقد ثبت أن السيد اختار تعديل الوقت دون تعديل المكان وحقق عدة رسائل جديدة لم يشاهدها رأفت فى هذا الوقت من النهار..

ولأن فريد هنيدى يثق فى قرارة نفسه أن ولدْى النحال يعملان فى ترويج الحشيش، فقد ظل متمسكًا بسؤال رأفت عن أخبار رسائل السيد كلما أتيح له ذلك وفوجئ مثل رأفت أنها انقطعت منذ أكثر من ستة أسابيع..

وبينما كانًا سويًّا جاء فتيان إلى فريد لأمر يتعلق بالأرانب التى صارا يتبادلان المصالح

بشأنها.. وتطرق الحديث حول أمير الذى لم يزر البلد منذ غادرها إلى الكلية.. ثم تطرق الحديث إلى السيد الذى بالكاد لم يزر البلد سوى مرتين.. ثم تطرق الحديث حول رسائله إلى أهله تلك التى يتسلمها بدير من خميسة.. واتفق أن فتيان كان قد شاهد «بدير» ذات صباح يخرج من دكان خميسة بلفافة كتلك التى يتحدثان عنها ـ فريد وأمير ـ وعندما سرد لهما ما شاهده أعمل فريد هنيدى تفكيره فى أن الرسائل مستمرة وأن تغيير موعد وصولها من الأصيل إلى الضحى تم بفعل فاعل حويط هو السيد النحال..

لم يكشف فريد عن ظنونه الآثمة أمام فتيان حول ماهية هذه الرسائل، ولكنه لاحظ أن فتيانًا طرح على استحياء سؤالًا واحدًا مرتين:

ـ «هل أحدكما يعرف عنوان السيد النحال فى القاهرة؟..»

وهنا ركز فريد نظراته الفاحصة فى وجه فتيان سائلًا عن سرّ اهتمامه بهذا الأمر، ولم يجد فتيان مفرًا من الاعتراف بجزء من مصيبته مع السيد النحال وهو المتعلق بالعنوان المضلل الذى تركه له عند خميسة والذى لم يجد أن له علاقة به..

ومرة أخرى حاصره فريد عن سرِّ اهتمامه بالبحث عنه فى القاهرة..:

ـ «ما الذى يجمع الشامى على المغربى يا أستاذ؟»

ولم يحاول فتيان أن يعلن قصة تورطه مع ابن النحال هكذا أمام زميليه حتى لا ينتشر خبر غبائه الشديد فى بلد نصفه يكرهه..

وإزاء ما تبين لفريد هنيدى من استمرار الرسائل عجيبة الهدف أشار على رأفت إبراهيم أن يحاول استدراج خميسة لعلها تعرف خبايا هذه الرسائل وفى أقل الأحوال لعلها تأخذ حذرها.

وعاد رأفت إلى فريد بأخبار أخرى نسفت كل ما كان يفكر فيه من مساوئ حتى أن رأفت تناوله بالتأنيب.. فالفتاة المتعاطفة مع حالة السيد النحال حولت الإجابة على سؤال رأفت إلى منظومة مدح فى ابن النحال الذى ظهرت أياديه البيضاء على كل أفراد أسرته، فها هو عباس النحال ينتعل حذاء جديدًا وجلبابًا صوفيًّا، وها هم عوض وعاشور وعرفة يمتلك كل واحد منهم أكثر من طاقم جديد من البنطلونات والقمصان والأحذية..

«وانظروا إلى البنات اللاتى صرن يتباهين فى البلد بما يرسله لهن السيد من ملابس

وفساتين وأحذية.. ناهيك عن الأطعمة التى يرسلها فى لفائفه حتى العجوة يرسلها لهم..»

ولا يدرى فريد هنيدى لم توقف متأملًا الحكمة من اختيار السيد النحال لرسالة عجوة يرسلها لأهله من مصر المحروسة.. ولا يدرى لمَ هداه ظنه السيئ إلى مدى مرونة العجوة فى احتواء أى جسم صلب بداخلها إذا غلفته بها.

ومع هذا فقد اختار فريد أن يلوذ بالصمت ما دامت هذه الرسائل تحولت بالفعل إلى ملابس متعددة الأشكال والأصناف كثيرة العدد بكثرة أولاد النحال.

لكنه كان صمتِ المراقب الذى يرهف أذنيه كالخفافيش الكامنة فى الظلام.. يفعل ذلك رغم مشاغله المتعددة ما بين النادى الرياضى فى الصباح ولقاء صحبة الأرانب عند الأصيل، ثم القراءة المتنوعة قبل النوم المبكر رغبة فى الاستيقاظ المبكر لبدء تمارينه الشاقة التى تبدأ باختراق الضاحية ركضًا لمسافة عشرة كيلومترات نصفها خروج عن البلد والنصف الآخر عودة إليه على مرأى من كل من يتلقون تحاياه ويردونها إليه من الفلاحين والفلاحات الذين بكروا مثله قاصدين حقولهم.

وفى حديثهم عنه بعد أن يتجاوزهم بركضه المثير وملابسه الرياضية الناعمة يعاود الفلاحون الإشادة بابن بلدهم الذى يضع اسمه بمهارة شديدة وبتأن حاذق بين الأبطال الصاعدين فى كمال الأجسام، وإذا راق لهم المقارنة بينه وبين فتيان فتيان الذى كان من الممكن أن يصبح بطلًا فى الجرى يأخذهم الضحك ويتملكهم الاستهجان لابن بلدهم فتيان الذى باع كل شىء فى سبيل الأرانب والبهائم.

وهنا لا ينسى أحدهم أن يذكّرهم بما استطاعه فريد هنيدى من الجمع بين رياضته المفضلة وهواية فتيان المفضلة.. وأنه بذكائه الشديد ومهارته استطاع أن يقيم حقلًا للأرانب فوق سطوحهم ففاض حتى طفح بها وأنه زرع الخير عند أهله ومضى إلى كليته تاركًا لهم مهمة زيادته والعكوف على صون نعمة الله المهداة.. حتى أن راضى هنيدى قال لأحدهم متعجبًا:

«كنت أظن أن أخى فريد يتسلى بحمل الحديد ثم راق له أن يتسلى بتربية الأرانب إلى أن وجدت الله يبسط له فى جسمه ويبسط لنا الرزق على يديه، فتأكدت أن أخى هذا به شىء لله كالأولياء الصاحين».